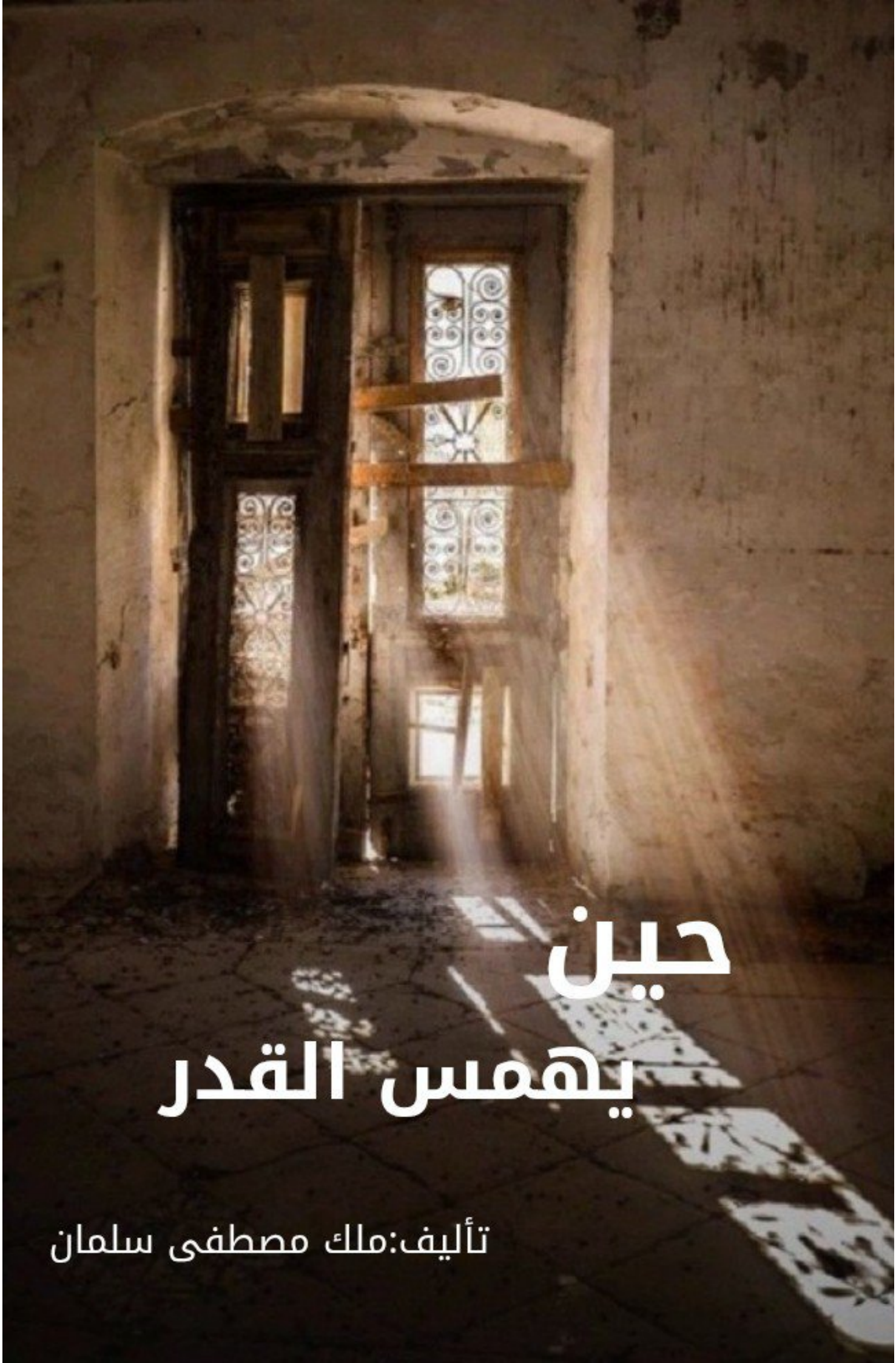

حين يهمس القدر

تأليف:ملك مصطفى سلمان

الفصل الأوَّل: حِينَ يَبْعَثُ القَدَرُ إِشَارَتَهُ الأُولَى

لَا شَيْءَ يَحْدُثُ عَبَثًا، وَلَا صُدْفَةٌ تَمُرُّ دُونَ أَنْ تَحْمِلَ فِي طَيَّاتِهَا مَعْنًى خَفِيًّا. نَحْنُ نَمْضِي فِي الحَيَاةِ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ خُطَانَا مِلْكٌ لَنَا، نَرْسُمُ الطُّرُقَ، نُخَطِّطُ، نَحْلُمُ، ثُمَّ نَتَفَاجَأُ بِأَنَّ شَيْئًا غَيْرَ مَرْئِيٍّ يَعْبَثُ بِكُلِّ مُخَطَّطَاتِنَا، يَجُرُّنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي إِلَى حَيْثُ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ. قَدْ نُسَمِّيهِ مُصَادَفَةً، وَقَدْ نَعْتَبِرُهُ انْحِرَافًا غَيْرَ مُبَرَّرٍ عَنْ المَسَارِ الَّذِي خَطَّطْنَاهُ، لَكِنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ لَيْسَ إِلَّا هَمْسَةَ القَدَرِ الأُولَى، إِشَارَةً تَأْتِي بِهُدُوءٍ، كَأَنَّهَا اخْتِبَارٌ لِإِدْرَاكِنَا.

يَحْدُثُ أَنْ نَشْعُرَ بِانْقِبَاضٍ مُفَاجِئٍ تِجَاهَ أَمْرٍ يَبْدُو مُبَشِّرًا، أَوْ رَاحَةٍ غَرِيبَةٍ تِجَاهَ طَرِيقٍ لَمْ نَحْسِبْهُ خِيَارًا، وَلَكِنَّنَا غَالِبًا مَا نَتَجَاهَلُ تِلْكَ الهَمَسَاتِ. نُرِيدُ أَدِلَّةً صَاخِبَةً، إِشَارَاتٍ وَاضِحَةً، لَكِنَّ القَدَرَ لَا يَعْمَلُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. إِنَّهُ يَتْرُكُ لَكَ الرُّمُوزَ مُبَعْثَرَةً عَلَى الطَّرِيقِ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَمْلِكَ البَصِيرَةَ لِقِرَاءَتِهَا.

فِي حَيَاةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا لَحْظَةٌ لَمْ يَفْهَمْهَا حِينَ وَقَعَتْ، كَلِمَةٌ قِيلَتْ عَابِرًا وَلَكِنَّهَا بَدَّلَتِ المَسَارَ، فُرْصَةٌ فَاتَتْهُ فَحَزِنَ عَلَيْهَا، ثُمَّ اكْتَشَفَ لَاحِقًا أَنَّ نَجَاتَهُ كَانَتْ فِي ضَيَاعِهَا. كَمْ مَرَّةً شَعَرْتَ أَنَّ يَدًا خَفِيَّةً دَفَعَتْكَ نَحْوَ طَرِيقٍ لَمْ تَكُنْ تُفَكِّرُ فِيهِ؟ وَكَمْ مَرَّةً نَدِمْتَ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَحْدُثْ، ثُمَّ حَمِدْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ؟

فِي البِدَايَةِ، تَأْتِي الإِشَارَاتُ كَطَرْقٍ خَفِيفٍ عَلَى بَابٍ مُغْلَقٍ. فَإِنْ لَمْ تَفْتَحِ البَابَ، بَدَأَ القَدَرُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، يُجْبِرُكَ عَلَى الِالْتِفَاتِ، يُقَلِّبُ الطَّاوِلَةَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ حَتَّى تَرَى الحَقِيقَةَ. كَثِيرُونَ لَا يُدْرِكُونَ تِلْكَ الهَمَسَاتِ إِلَّا بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ، حِينَ يَلْتَفِتُونَ إِلَى الوَرَاءِ لِيَرَوْا كَيْفَ تَشَابَكَتِ الأَحْدَاثُ، وَكَيْفَ أَنَّ كُلَّ تَفْصِيلٍ صَغِيرٍ كَانَ يَقُودُهُمْ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا.

إِذَنْ، السُّؤَالُ لَيْسَ: "هَلْ يُرْسِلُ القَدَرُ إِشَارَاتِهِ؟" بَلْ: "هَلْ نَمْلِكُ الجُرْأَةَ لِنُصْغِي؟"

الفصل الثَّانِي: عَلَى مُفْتَرَقِ الحِيرَةِ

مَا أَصْعَبَ أَنْ يَقِفَ الإِنْسَانُ عِنْدَ نُقْطَةٍ لَا تَرَاجُعَ فِيهَا وَلَا وُضُوحَ لِلْأَمَامِ. هُنَاكَ لَحَظَاتٌ فِي الحَيَاةِ لَا تَكُونُ فِيهَا الخِيَارَاتُ بَيْنَ جَيِّدٍ وَسَيِّئٍ، بَلْ بَيْنَ مَجْهُولَيْنِ، وَكَأَنَّكَ أَمَامَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ بِلَا لَافِتَاتٍ، بِلَا دَلِيلٍ يُخْبِرُكَ أَيُّهُمَا يَقُودُكَ إِلَى النَّجَاةِ وَأَيُّهُمَا إِلَى الضَّيَاعِ.

لَكِنْ، هَلْ نَحْنُ حَقًّا أَصْحَابُ القَرَارِ؟ أَمْ أَنَّ الحِيرَةَ مُجَرَّدُ وَهْمٍ، وَأَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي نَسْلُكُهُ قَدْ كُتِبَ مُنْذُ زَمَنٍ، وَنَحْنُ فَقَطْ نَعِيشُ لَحْظَةَ اخْتِيَارِهِ ظَاهِرِيًّا؟ الحِيرَةُ لَيْسَتْ ضُعْفًا، بَلْ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي يُكْشَفُ فِيهَا مَدَى وَعْيِنَا. إِنَّهَا الفُرْصَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي يُمْنَحُهَا لَنَا القَدَرُ لِنَرَى الأُمُورَ كَمَا هِيَ، لَا كَمَا نُرِيدُهَا أَنْ تَكُونَ.

فِي كُلِّ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، هُنَاكَ طَرِيقٌ سَهْلٌ وَطَرِيقٌ صَعْبٌ. الأَوَّلُ يَبْدُو مَأْلُوفًا، هَادِئًا، لَا يَتَطَلَّبُ الكَثِيرَ مِنَ العَنَاءِ. أَمَّا الثَّانِي، فَوَعِرٌ، مَجْهُولٌ، تَتَرَدَّدُ أَمَامَهُ قَبْلَ أَنْ تَخْطُوَ. لَكِنَّ الغَرِيبَ أَنَّ مُعْظَمَ الحَقَائِقِ العَظِيمَةِ، مُعْظَمَ التَّحَوُّلَاتِ الكُبْرَى، لَمْ تَحْدُثْ لِمَنْ اخْتَارُوا الطَّرِيقَ السَّهْلَ، بَلْ لِمَنْ تَجَرَّأُوا عَلَى المَجْهُولِ.

يُقَالُ إِنَّ الحِيرَةَ لَيْسَتْ فِي المُفْتَرَقِ ذَاتِهِ، بَلْ فِي القَلْبِ الَّذِي يَخْشَى أَنْ يَسْتَمِعَ إِلَى صَوْتِ القَدَرِ. لِأَنَّ الإِجَابَةَ دَائِمًا هُنَاكَ، وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ لِمَنْ يَمْلِكُ الشَّجَاعَةَ لِيُصْغِيَ.

الفصل الثالث: رِسالاتٌ لا تَصِلُ مُتَأَخِّرَةً أَبَدًا

يَظُنُّ الإِنسانُ أَنَّ كُلَّ شَيءٍ يَجِبُ أَنْ يَحدُثَ في تَوقِيتِهِ الَّذِي اِخْتَارَهُ، أَنْ تَأْتِيَهُ الإِجَابَاتُ فَوْرَ طَرحِهِ لِلْأَسْئِلَةِ، أَنْ تُفْتَحَ الأَبْوَابُ حِينَ يَطرُقُهَا، أَنْ يَصِلَ حِينَ يُقَرِّرُ الرَّحِيلَ. لَكِنَّهُ يَنْسَى أَنَّ الزَّمَنَ لَيْسَ بِيَدِهِ، وَأَنَّ لِكُلِّ شَيءٍ مَوْعِدًا مُخْفِيًّا، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا القَدَرُ.

هُنَاكَ رِسَالَاتٌ يَبْعَثُهَا اللَّهُ إِلَيْنَا، لَكِنَّهَا لَا تَصِلُ إِلَّا عِندَمَا نَكُونُ مُسْتَعِدِّينَ لِفَهْمِهَا. قَدْ تَأْتِي فِي هَيْئَةِ مَوقِفٍ لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ بِوُضُوحٍ مِنْ قَبْلُ، أَوْ شَخْصٍ يَدْخُلُ حَيَاتَنَا فَجْأَةً لِيُغَيِّرَ مَنْظُورَنَا، أَوْ حَتَّى صَمْتٍ طَوِيلٍ نَكْتَشِفُ فِي نِهَايَتِهِ أَنَّنَا كُنَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ إِجَابَةٍ. الإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ عَجُولٌ، يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ الآنَ، أَنْ يَعْرِفَ الآنَ، لَكِنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ كَمْ مِنَ الأَجْوِبَةِ الَّتِي اسْتَعْجَلَهَا فِي المَاضِي لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَوْعِبَهَا حِينَهَا، لَأَدْرَكَ أَنَّ الرَّسَالَاتِ لَا تَتَأَخَّرُ، بَلْ نَحْنُ مَنْ نَتَأَخَّرُ عَنْ نُضْجِنَا الكَافِي لِقِرَاءَتِهَا.

كَمْ مَرَّةً بَكَيْتَ عَلَى فُرْصَةٍ ظَنَنْتَ أَنَّهَا ضَاعَتْ، ثُمَّ أَدْرَكْتَ لَاحِقًا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لَكَ مِنَ الأَسَاسِ؟ وَكَمْ مَرَّةً شَعَرْتَ أَنَّ شَيْئًا قَدِ انْكَسَرَ دَاخِلَكَ، ثُمَّ جَاءَ الزَّمَنُ لِيَكْشِفَ لَكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ انْكِسَارًا، بَلْ إِعَادَةَ تَشْكِيلٍ؟

الحِكْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَنْ نَفْهَمَ كُلَّ شَيءٍ فَوْرًا، بَلْ فِي أَنْ نَثِقَ أَنَّ كُلَّ شَيءٍ سَيُفْهَمُ حِينَ يَحِينُ وَقْتُهُ. بَعْضُ الرَّسَالَاتِ تَحْتَاجُ سَنَوَاتٍ لِتُقْرَأَ، وَبَعْضُ النِّهَايَاتِ الَّتِي حَزِنَّا عَلَيْهَا كَانَتِ البِدَايَةَ الَّتِي كُنَّا نَحْتَاجُهَا، وَبَعْضُ الأَبْوَابِ الَّتِي أَغْلَقَهَا القَدَرُ أَمَامَنَا كَانَتْ لِحِمَايَتِنَا، لَا لِعِقَابِنَا.

لَا شَيءَ يَضِيعُ، وَلَا شَيءَ يَتَأَخَّرُ. كُلُّ شَيءٍ يَأْتِي فِي مَوْعِدِهِ، حِينَ يَكُونُ القَلْبُ مُسْتَعِدًّا لِاسْتِقْبَالِهِ.

الفصلُ الرَّابِعُ: لُغَةُ الأَقْدَارِ الخَفِيَّةُ

كَمْ مَرَّةً وَقَفْنَا أَمَامَ حَدَثٍ فِي حَيَاتِنَا، نَظُنُّهُ لَحْظَةً عَابِرَةً، فَإِذَا بِهِ يَكُونُ المِفْتَاحَ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابًا كَثِيرَةً فِي المُسْتَقْبَلِ؟ وَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ أُلْقِيَتْ فِي مَسَامِعِنَا بِدُونِ تَفْكِيرٍ، فَغَيَّرَتِ القِصَّةَ كُلَّهَا؟

القَدَرُ لَا يَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ صَرِيحَةٍ، وَلَا يُعْلِنُ قَرَارَاتِهِ بِصَوْتٍ مَرْفُوعٍ. إِنَّهُ يُحِبُّ الإِشَارَاتِ، يُرْسِلُ لَنَا العَلَامَاتِ فِي أَشْيَاءَ لَا نُلْقِي لَهَا بَالًا، فِي كَلِمَةٍ صَدِيقٍ نَسْمَعُهَا عَرَضًا، فِي كِتَابٍ نَجِدُهُ صُدْفَةً، فِي طَرِيقٍ نَسْلُكُهُ بِالخَطَأِ فَنَصِلُ إِلَى مَكَانٍ لَمْ نُخَطِّطْ لَهُ.

الذَّكِيُّ لَيْسَ مَنْ يَسْأَلُ القَدَرَ عَنْ مَصِيرِهِ، بَلْ مَنْ يَفْهَمُ لُغَتَهُ. الحَيَاةُ تَعْطِينَا أَكْثَرَ مِمَّا نَطْلُبُ، لَكِنَّ المُشْكِلَةَ أَنَّنَا نَنْتَظِرُ العَطَايَا بِالشَّكْلِ الَّذِي نُرِيدُهُ، فَنُفَوِّتُ فُرَصًا كَثِيرَةً كَانَتْ تَنْتَظِرُنَا فِي زَوَايَا لَمْ نَنْظُرْ إِلَيْهَا.

لَا تَطْلُبْ مِنَ القَدَرِ أَنْ يُخْبِرَكَ بِمَا يُخَفِّيهِ، بَلْ تَعَلَّمْ أَنْ تَقْرَأَ الرِّسَالَاتِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ الوَقْتُ

الفصلُ الخَامِسُ: الأبْوَابُ الَّتِي لَا تُفْتَحُ

لَيْسَ كُلُّ بَابٍ مُغْلَقٍ فِي وَجْهِكَ مَعْنَاهُ أَنَّكَ فَشِلْتَ، وَلَيْسَ كُلُّ طَرِيقٍ لَمْ تَسْلُكْهُ يَعْنِي أَنَّكَ أَضَعْتَ الفُرْصَةَ. أَحْيَانًا، يَكُونُ الإِغْلَاقُ هُوَ الحِمَايَةَ، وَيَكُونُ المَنْعُ هُوَ الخَلَاصَ.

كَمْ مِنْ مَرَّةٍ بَكَانَا عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَحْدُثْ، وَكُنَّا نَرَاهُ الخُسَارَةَ الكُبْرَى؟ كَمْ مِنْ طَرِيقٍ تَمَنَّيْنَا أَنْ نَسِيرَ فِيهِ، وَلَكِنَّ الحَيَاةَ أَغْلَقَتْهُ أَمَامَنَا؟ وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ تَعَلَّقْنَا بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ القَدَرُ مِنْ حَيَاتِنَا، فَظَنَنَّا أَنَّهُ عِقَابٌ، وَمَا كَانَ إِلَّا نَجَاةً؟

الحَقِيقَةُ أَنَّنَا لَا نُدْرِكُ أَبَدًا مَا كَانَ يُخْبِئُهُ ذَلِكَ البَابُ المُغْلَقُ. أَحْيَانًا، نُحَارِبُ مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْصُلَ عَلَيْهِ، نَظُنُّ أَنَّ مَا نُرِيدُهُ هُوَ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَنَنْسَى أَنَّ القَدَرَ يَعْرِفُ أَكْثَرَ مِنَّا.

فِي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، سَنَنْظُرُ إِلَى الوَرَاءِ وَنُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ بِمَكَانِهِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ الأَبْوَابَ الَّتِي لَمْ تُفْتَحْ، كَانَتْ تَحْمِلُ وَرَاءَهَا أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ يَجِبُ أَنْ نَرَاهَا.

الفصلُ السَّادِسُ: لَحْظَةُ الفَهْمِ المُتَأَخِّرَةُ

يُقَالُ: "أَفْهَمُ الآنَ مَا لَمْ أَفْهَمْهُ يَوْمًا." جُمْلَةٌ قَصِيرَةٌ، لَكِنَّهَا تَحْمِلُ حِكْمَةَ العُمْرِ كُلِّهِ.

الحَقِيقَةُ أَنَّنَا لَا نَفْهَمُ الأَشْيَاءَ وَهِيَ تَحْدُثُ، لِأَنَّنَا نَكُونُ مَشْغُولِينَ بِالِاسْتِجَابَةِ لَهَا، بِالشُّعُورِ نَحْوَهَا، بِالتَّحَايُلِ عَلَيْهَا. نُرَكِّزُ فِي الأَلَمِ أَكْثَرَ مِمَّا نُرَكِّزُ فِي دَرْسِهِ، وَنَنْظُرُ إِلَى الخَسَارَةِ دُونَ أَنْ نَرَى مَا وَهَبَنَا إِيَّاهَا.

ثُمَّ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ، فِي لَحْظَةٍ مُفَاجِئَةٍ، يَسْقُطُ السِّتَارُ. نَنْظُرُ إِلَى الأُمُورِ بِعَيْنٍ مُخْتَلِفَةٍ، نَفْهَمُ لِمَاذَا لَمْ تَحْدُثْ تِلْكَ الأَمَانِي، نُدْرِكُ لِمَاذَا تَعَثَّرْنَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَنَعِي أَنَّ القَدَرَ كَانَ يُعِدُّنَا لِمَا هُوَ أَعْظَمُ.

إِنَّ اللَّحْظَةَ الَّتِي نَفْهَمُ فِيهَا هِيَ أَثْمَنُ اللَّحَظَاتِ، لِأَنَّهَا تُحَوِّلُ المَاضِي مِنْ مَجَرَّدِ ذِكْرَى إِلَى خِبْرَةٍ، وَتَجْعَلُ الخَسَائِرَ أَقَلَّ وَجَعًا، وَتُعَلِّمُنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الحَيَاةِ بِعَيْنٍ أَكْثَرَ حِكْمَةً.

إِذَنْ، لَا تَحْزَنْ عَلَى الأَشْيَاءِ الَّتِي لَمْ تَفْهَمْهَا فِي وَقْتِهَا، فَكُلُّ شَيْءٍ يَحْمِلُ مَعْنَاهُ فِي زَمَانِهِ المُنَاسِبِ. المَعْرِفَةُ لَا تَأْتِي دَفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ تَكْبُرُ مَعَ الأَيَّامِ، كَالنُّورِ الَّذِي يَزِيدُ ضِيَاؤُهُ كُلَّمَا تَقَدَّمْنَا فِي الطَّرِيقِ.

كَمْ مَرَّةً بَكَانَا عَلَى خَسَارَةٍ، وَكَانَتْ فِي الحَقِيقَةِ نَجَاةً؟ كَمْ مَرَّةً سَأَلْنَا: "لِمَاذَا؟" وَبَعْدَ سِنِينَ، جَاءَ الجَوَابُ صَامِتًا، لَكِنَّهُ كَانَ أَشَدَّ وُضُوحًا مِنْ أَيِّ كَلِمَةٍ؟

الحَيَاةُ لَا تُعْطِينَا الإِجَابَاتِ فِي الوَقْتِ الَّذِي نُرِيدُهُ، بَلْ فِي الوَقْتِ الَّذِي نَكُونُ فِيهِ مُسْتَعِدِّينَ لِفَهْمِهَا. فَكُلُّ دَرْسٍ لَهُ زَمَانُهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ لَهُ مَا سَيَفْهَمُهُ وَقْتَمَا يَحِينُ دَوْرُهُ.

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَنْدَمُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ، وَيُضَيِّعُونَ مَا يَأْتِي لِأَجْلِهِمْ. فَإِذَا كَانَ المَاضِي قَدْ أَخْفَى عَنْكَ مَعَانِيَهُ، فَالمُسْتَقْبَلُ يَحْمِلُ لَكَ مَا سَيُجِيبُ عَنْ كُلِّ مَا أَحْيَرَكَ يَوْمًا.

عِشْ مُطْمَئِنًّا، فَكُلُّ شَيْءٍ سَتَعْرِفُهُ حِينَ يَهْمِسُ القَدَرُ فِي أُذُنِكَ، فِي الوَقْتِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ أَنْ تَسْمَعَ.

الفصلُ السَّابِعُ: لُغَةُ الصَّمْتِ

فِي العَالَمِ كُلِّهِ، لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يَتَحَدَّثُ بِصِدْقٍ كَمَا يَفْعَلُ الصَّمْتُ. هُوَ الحِكَايَةُ الَّتِي تُقَالُ بِلَا كَلِمَاتٍ، وَالحِكْمَةُ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي فُجْوَةِ الضَّجِيجِ. لَكِنَّ المُشْكِلَةَ أَنَّ الكَثِيرِينَ لَا يَفْهَمُونَ هَذِهِ اللُّغَةَ، فَيُفَوِّتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فُرَصَ الفَهْمِ الحَقِيقِيِّ.

لَمْ يَكُنِ الصَّمْتُ يَوْمًا فَقْرًا فِي الكَلَامِ، بَلْ كَانَ وَفْرَةً فِي المَعَانِي. فِي الصَّمْتِ، نَجِدُ إِجَابَاتٍ لَمْ نَكُنْ نَجِدُهَا فِي الحِوَارِ، وَنَسْمَعُ أَصْوَاتًا كَانَتْ مَخْفِيَّةً فِي جَلَبَةِ الحَيَاةِ. مَنْ أَجَادَ فَهْمَ الصَّمْتِ، لَا يُخْدَعُ بِالكَلِمَاتِ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الإِنْصَاتَ لِهَمَسَاتِ القَدَرِ، لَا يَفُوتُهُ دَرْسٌ مَهْمَا بَدَا خَفِيًّا.

لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَخَافُونَ الصَّمْتَ، لِأَنَّهُ يَكْشِفُ مَا يُحَاوِلُونَ تَجَاهُلَهُ. يُفَضِّلُونَ الضَّجِيجَ الَّذِي يُغَطِّي الحَقَائِقَ، لِأَنَّهُ يُشْعِرُهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَسِيرُونَ وَحْدَهُمْ. وَلَكِنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّ مَنْ لَا يُوَاجِهُ صَمْتَهُ، سَيَبْقَى دَائِمًا هَارِبًا مِنْ نَفْسِهِ.

فِي النِّهَايَةِ، الصَّمْتُ لَيْسَ فَقْطَ غِيَابَ الكَلَامِ، بَلْ هُوَ مَسَاحَةٌ تَكْبُرُ فِيهَا الأَفْكَارُ، وَيُكْتَبُ فِيهَا القَدَرُ بِلُغَةٍ لَا يَقْرَؤُهَا إِلَّا مَنْ أَصْغَى بِقَلْبِهِ.

الفصلُ الثَّامِنُ: لُغْزُ الأَقْدَارِ المُعَقَّدُ

إِنَّ الحَيَاةَ لُغْزٌ كَبِيرٌ، كُلُّ حَدَثٍ فِيهَا قِطْعَةٌ مِنْ لُغْزٍ أَكْبَرَ لَا نُدْرِكُ كُلَّ أَجْزَائِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً. فَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا فِي طَرِيقٍ مَا، نَظُنُّ أَنَّهُ خَطَأٌ، وَبَعْدَ سِنِينَ نُدْرِكُ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مَا حَدَثَ لَنَا؟

الأَقْدَارُ لَا تَعْمَلُ بِمَنْطِقِنَا البَشَرِيِّ، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ حِكْمَةً وَشُمُولِيَّةً. فَنَحْنُ نَرَى الجُزْءَ الصَّغِيرَ مِنَ الرِّوَايَةِ، أَمَّا القَدَرُ فَيَرَى كُلَّ الصَّفَحَاتِ. وَمَا نَرَاهُ يَوْمًا مُؤْلِمًا، قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ هَدِيَّةٍ نَالَهَا قَلْبُنَا دُونَ أَنْ نَدْرِي.

لَا تُحَاوِلْ فَكَّ كُلِّ شَيْءٍ الآنَ، فَبَعْضُ الأَسْرَارِ تَحْتَاجُ وَقْتًا لِتُفْهَمَ، وَبَعْضُ اللُّغُوزِ تُحَلُّ حِينَمَا نَتَوَقَّفُ عَنْ مُطَارَدَتِهَا.

الفصلُ التَّاسِعُ: حِينَمَا يَبُوحُ القَدَرُ

فِي أَحْيَانٍ نَادِرَةٍ، يَكْشِفُ لَنَا القَدَرُ عَنْ وَجْهِهِ الخَفِيِّ، وَيُرِينَا مَا كُنَّا نَسْأَلُ عَنْهُ طَوِيلًا. حِينَهَا، نَشْعُرُ بِأَنَّ كُلَّ أَحَدَاثِ المَاضِي كَانَتْ تَسِيرُ بِنَا نَحْوَ هَذِهِ اللَّحْظَةِ، وَأَنَّ كُلَّ دَمْعَةٍ، وَكُلَّ ضَائِعٍ، وَكُلَّ وُجُودٍ أَتَى ثُمَّ غَادَرَ، كَانَ جُزْءًا مِنْ خُطَّةٍ أَكْبَرَ.

هَذِهِ اللَّحْظَةُ، لَوْ جَاءَتْ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ، لَمَا فَهِمْنَاهَا، وَلَمَا قَبِلْنَاهَا بِذَاتِ الحِكْمَةِ الَّتِي نَمْلِكُهَا الآنَ. وَلَكِنَّ القَدَرَ يَعْرِفُ مَتَى يُفْصِحُ عَنْ سِرِّهِ، وَمَتَى يَتْرُكُنَا نُحَاوِلُ فَهْمَهُ بِطَرِيقَتِنَا.

لَا تَسْتَعْجِلِ الإِجَابَاتِ، فَالقَدَرُ يَبُوحُ فَقَطْ لِمَنْ صَبَرَ عَلَى هَمْسَاتِهِ، وَتَعَلَّمَ أَنْ يَسْمَعَهَا حِينَ يَحِينُ الوَقْتُ.

الفصلُ العَاشِرُ: مَا لَمْ نُدْرِكْهُ بَعْدُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ، هُنَاكَ دَرْسٌ جَدِيدٌ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ، هُنَاكَ إِشَارَةٌ مَخْفِيَّةٌ. وَلَكِنْ لَا أَحَدَ مِنَّا يَدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ، فَمَهْمَا بَلَغْنَا مِنَ الخِبْرَةِ وَالحِكْمَةِ، فَإِنَّ الحَيَاةَ تَبْقَى أَكْبَرَ مِنَّا.

مَا لَمْ نُدْرِكْهُ بَعْدُ، هُوَ أَنَّ كُلَّ وُجُودٍ فِي حَيَاتِنَا لَهُ غَايَةٌ، وَأَنَّ كُلَّ طَرِيقٍ سِرْنَا فِيهِ، كَانَ يَأْخُذُنَا نَحْوَ مَا يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ عَلَيْهِ.

فَفِي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، سَنَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا عِشْنَاهُ، وَنَفْهَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَحْمِلُ جُزْءًا مِنَ الجَوَابِ الَّذِي كُنَّا نَبْحَثُ عَنْهُ.

وَرُبَّمَا، فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَنَبْتَسِمُ، لِأَنَّنَا أَدْرَكْنَا أَخِيرًا مَا كَانَ يَهْمِسُ بِهِ القَدَرُ طُوَالَ هَذِهِ السِّنِينَ.

وَفِي نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ، سَنُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَحْمِلُ غَايَةً، وَأَنَّ لَحَظَاتِ الضَّعْفِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا جُسُورًا نَعْبُرُهَا نَحْوَ قُوَّتِنَا، وَأَنَّ كُلَّ أَلَمٍ كَانَ مِعْوَلًا يَنْحِتُ فِينَا شَخْصِيَّةً جَدِيدَةً، وَكُلَّ دَرْبٍ ظَنَنَّا أَنَّهُ مُغْلَقٌ، كَانَ فِعْلًا يُوَجِّهُنَا نَحْوَ الطَّرِيقِ الأَصَحِّ.

وَأَكْثَرُ مَا لَمْ نُدْرِكْهُ بَعْدُ، هُوَ أَنَّ الحَيَاةَ لَا تَسْلُبُنَا شَيْئًا إِلَّا لِتُعْطِينَا مَا هُوَ أَثْمَنُ، وَلَا تَكْسِرُنَا إِلَّا لِتُعَلِّمَنَا كَيْفَ نَنْهَضُ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَا تُؤَجِّلُ أَمَانِينَا إِلَّا لِأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ وُصُولَهَا فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ أَجْمَلُ وَأَكْمَلُ.

وَحِينَ نَصِلُ إِلَى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، سَنَتَذَكَّرُ كُلَّ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي تَسَاءَلْنَا فِيهَا: "لِمَاذَا؟" وَسَنَفْهَمُ أَنَّ القَدَرَ كَانَ يُهَمْسُ لَنَا، لَكِنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَسْمَعُ.

وَعِنْدَهَا، قَدْ نَجْلِسُ بَيْنَ أَنْفُسِنَا، وَنَبْتَسِمُ، لِأَنَّنَا أَخِيرًا أَدْرَكْنَا كُلَّ مَا كَانَ يَهْمِسُ بِهِ القَدَرُ طُوَالَ هَذِهِ السِّنِينَ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سُؤَالٌ أَكْبَرُ مِنَ السُّكُونِ.

حين يهمس القدر

تأليف:ملك مصطفى سلمان